ألطاف دمشقية

للدكتور بشر فارس

أريد أن أحدثك عن ناحية من نواحي الثقافة ، وهي أجنبية عما يتصل بالمكتوب والمخطوط . وليست الثقافة كلها محصورة في خزانة صحائف ، وانما الثقافة تتفتح لكل ما يصقل الذهن وينعّم الحس ويغذو الضمير

من سفح ذلك الجبل المتساق الجرد ، صنّين الأزلي انحدرت الى ربوع الشام . فغادرت ، على كره مني ، قرية « الشخروب » المعلقة فوق بلدة بسكنتا كالقرط في أذن الأثير ، المستلقية عند قدم صنّين تبتهل وتستعطف . وغادرت هنالك رجلاً وجد في نفسه ما يقويه على احتمال ذلك الضغط الأزلي فيرفع ببصره الى القمة البيضاء بياض الحقيقة ولا ينكسر لحظه . هجمت على صومعته فشغلته عن مشاهداته الباطنة فلم يغضب بل تلقاني سماح النفس : تلقى نزق الانسانية واضطرابها لعله يمسح جراحاتها بين جبل صلب شامخ وواد شظف هاوٍ لدى سكون صافٍ يكشف عن أسرار الوجود

غادرت الشخروب وصاحبها ميخائيل نعيمة الى دمشق . دخلتها وصورتها متمثلة ترافقني في الحاح لطيف كأنها معشوقة نحتت من لطائف المادة فلا هي تبلى ولا هي تثقل . وكنت تنسمت أريجها من بعد ساعة ، من قرية شتوره ، من نزل المسابكي حيث الخُلق على كرم والذوق على رهافة : في جوّ النزل انشراح من يلقاك كأنه يضيفك عن محض وده : وعلى الأسرّة وبالحيطان محاسن أصناف الكليم المدعى اليوم « سوماك » (شماخي أصلاً)

أني محدثك عن خفايا تلك الطرقات الضيقة كأنها مهدت لتطلّي خفاف رقاق متقاربة ، وعما وراء تلك الدور الفخمة تبدو لنا من الخارج أشباه سجون السور الذي يحدها ويحجزها عنك حجزاً والباب الدقيق يهدد أعلاه جبينك القامة . أحدثك عن ولع الدمشقيين بالألطاف والتحف . ومثل هذا الولع عندي من دلائل الثقافة المغروسة في الانفس المستقرة في الطبائع لأن منبتها الذوق السليم المرفّه . ولا أشك ان الطنافس التي جمعها علي باشا ابرهيم والالواح التي اقتناها محمد محمود خليل بك والصور الفارسية التي يعرضها الآن شريف صبري باشا في

دار الآثار العربية وأنواع السكاكين التي تلقفها يوسف فارس، ذلك الى جنب التحف المختلفة تزين دور علية القوم عندنا أو أهل الترف امثال عنايت هانم سلطان ويوسف باشا ذو الفقار وخليل ثابت بك، فضلاً عن أفراد الأسرة المالكة، لا شك انها جميعاً تعد في رقي مصر

والحق أني لا أستطيع أن أحدثك عن ألطاف دور دمشقية كثيرة، ذلك أني لم ألبث في هذا البلد الجميل طويلاً. سأحدثك عن ثلاث دور زرتها غير مرة وأشهد أن نشاطي لزيارتها لم يفتر بعد :

السيد سعيد الرشاش رجل بين السبعين والثمانين. في أنامله رعشة المتحمس أبداً، تحسس مدة خمسين سنة الخزف البراق والزجاج الشفاف. وقد رأيت في ردهة داره من الارض حتى السقف رفافاً متلاصقة تشكو زحام الأواني الصينية والعربية، ويا روعة الأواني الصينية! فيها اللونان اللذان بهما تحلم متاحف العالم فتتسابق اليهما : أصفر الياقوت الجلناري وأزرق الفيروز المشرق. ولما التفت الى السيد سعيد الرشاش مبهوتاً أخذ بيدي الى ... أتدري الى أين؟ الى المطبخ. معاذ الله! من خزانات المطبخ — والنحاس الرذيل فوق التنور ينظر ساخراً، والخشب الخشن بالحائط يتحدى — أخرج صاحب الدار صينيات لو علم بها أهل الصين لغزوا دمشق. فلما سألته عن هذا التدنيس غضباً بعض الشيء. قال : ربما عظم لديك ما هان عندي لوفرة ما أشاهد. ثم جذبني الى حجرة مغلقة، فتقدمني في خشوع ورفق يده ثم تناول إبريقاً ارجوانياً كأنه نبذة من مغيب شمس وقال لي في صوت متباعد : ظفرت به في بغداد لثلاثين سنة خلت وحملته من عروته من هنالك الى هنا، فلما وصلت دمشق ظللت أسبوعاً وعيني مكحولة بالارجوان لا ترى الابيض والاسود والتبني وغيرها إلاّ من خلال بريق هذا الابريق. قلت : بربك نحّه عن بصري، فاني أريد أن أنعم بخضرة « الغوطة » وصفرة تلّ « المهاجرين » ... وتركت الشيخ الرشاش وأنا أكبر حسه الرقيق

وأما الدكتور يوسف عرقتنجي فصريع البلور المزوّق، البلور المصنوع في بوهيمية لقصور تركية وفارس. وقد شهدت سلم ألوان لو جمع بعضها الى بعض لتمثلت لك الشمس عند ولادتها وهلاكها : أكواب نحيفة صنعةً ثقيلة وزناً منحوتة في البلور الذي يلف تعاريج الشعاع ويشف اهتزازات الضوء، وأباريق على لونين أو ثلاثة أو أربعة، هذا داخل وذاك بارز، هذا ممتد وذاك منقبض، ونارجيلات مرسلات أعناقها مطوقات بخالص الذهب المدسوس في التجاويف البليغة. ثم ان الدكتور الجمّاع مفتون بالصور العتيقة، وتواريخها تنبسط من المائة العاشرة الى المئة السابعة عشرة، وفي جملتها خمس أو ست لم تكاشفني بجميع أسرارها بعد، واذكر لوحاً للمائة الرابعة عشرة يبث وجه قديس، وجهاً مشغولاً بالسماء مثّل لي الشطحات

الوجدانية التي قيدها El Greco في ختم المائة السادسة عشرة بفضل ألوان متقدة واشارات متوهمة واشكال منزهة عن دَرَن المادة . ذلك غير ما في الدار من مطرّزات نوادر

بقيت الدار الثالثة وهي فريدة جامعة وصاحبها السيد حنا مركيس . وروعتها في البناء أول كل شيء . هي دار عربية اندلسية قديمة العهد قائمة في « باب توما » تتحدى العمارة الاوربية الماجة علينا بقبحها ونحن نتقبلها بحماقة وان نافرت حاجاتنا وعارضت طبائع اقليمنا ، بل نتعصب لقبحها كما نتعصب لكل ما ينقض علينا من جهة الغرب كأننا لا نملك شيئاً ولا نظفر بتاريخ ولا ننعم بذوق :

صحن منبسط مفروش بالبلاط المنمق اتسع واملاسّ ، وحوض مرمري ثم ايوان مروّق كالمرتفع يجذب ويحملك الى عهد بحتري ، تجلس فيه الى الفوّارة فكأنك تنشط لمعبد او لسلامة . وعلى جانبي الصحن غرف مخشّبة الحيطان والسقوف ، يا له من خشب مخور ومنقوش صنعة أيدٍ فارسية تارة دمشقية أخرى ، وفي بيت «الكردلية» بجوار جامع طولون في مصر ما يطاول ذلك الترف أحياناً . فغرفة رُمّانية وثانية فستقية وثالثة لازوردية ورابعة مشمشية كلها أصباغ كأنها غمست في أشعة الياقوت والزمرد . وفي الخُشُب خزوات وادراجات تتناظر فيها صنوف من الطرائف منضودة : بلور وخزف وفخار ونحاس وقيشاني وفسيفساء ، كلها من عهود مضت ، من عهود الحضارة العربية المذهبة . وكثيراً ما تمهلت عند لطيف من الألطاف أو أثر من الآثار وأنا أزن مبلغ ما كنا صعدنا اليه ، فأشكر لصاحب الدار ان يمتع بصري برواح جاءٍ لله كيف توهّج !

وتمتاز دار السيد مركيس بعد ذلك بما فيها من ضنائن الطنافس . وقد عرضتها جميعاً ثلاث مرات أو أربعاً ، وعيني لا تمل ولا تشبع . ما هذه السجادات التركية القديمة بمحاريبها وأباريقها وأعمدتها : رسوم وألوان وانسجامات تحير النظر المتطلع ! ما أجمل هذه « الجيوردس » وألطف هذه « الكيرشهير » وأدق هذه «الكوله» وأجل هذه « اللادك » ثم الطنافس الفارسية ما أحلى أصباغها ! مسح الدهر حدتها ولطّف زهوتها وموّج ضوءها

ان دار السيد مركيس من فتن دمشق ، وهي عزاء عن الذوق الفاسد المنبثّ الآن بين أهل المال الطريف ، وهي دليل ساطع على ترف الشرق العربي . هي قصيدة من الشعر ، وزنها ولفظها وصورتها تنسق سراً فتفيض ايهاماً وايحاءً في بلد مآذنه المنطلقة تنظر الى الدور من عل تتنزه عن زينة الدنيا ، ومقاماته وزواياه وقبابه منتشرة في المدينة يحفها السرو والحور يفرقان بينها وبين ضوضاء العالم وجلبة الاسواق ، فتى اهتدى البصر اليها واستراح صفا واطمأن وبعد وربما نفذ فاتحد بالحقيقة ؟